التاريخ فى سير أبطاله

أحمد عرابى

لما آن التاريخ أن ينصف هذا المصرى الفلاح
وأن يعيد له مكانة بين قواد حركتنا القومية ؟

للأستاذ محمود الخفيف

وذهب الضباط على رأس من أخرجوهم إلى الخديو يسمعونه شكواهم ، وكان بعض أعوان الخديو يشيرون عليه بأخذهم بالشدة ومعاملتهم معاملة الثائرين ولو أدى الأمر إلى إطلاق النار عليهم ، وقال البعض إن من الخير أن تلجأ الحكومة إلى البطش وليس لديها وسائله، فالفرق جميعاً تؤيد عرابياً ومن معه، والرأى أن يسلك الخديو معهم جانب اللين فيطفئ بذلك نار الفتنة

وتغلبت الحكمة على الطيش ووضع اللين فى موضع البطش . فأوفد الخديو إلى الضباط الثلاثة ومن ظاهرهم من الجند تحت نوافذ قصره يخبرهم بإجابة مطالبهم الأول فقد عزل وفق ، وطلب إليهم أن يختاروا من يحل محله حتى لا يعودوا إلى الشكوى ، فوقع اختيارهم على محمود باشا البارودى ؛ ووعد الخديو بالنظر فى بقية مطالبهم والعمل على إسعافهم . وطلب الضباط الإذن على الخديو فمثلوا بين يديه وأعربوا له عن امتنانهم وولائهم لشخصه وإخلاصهم لعرشه ، ثم انصرفوا وانصرف الجند فرحين مستبشرين

وكان على الخديو أن يتدبر الأمر منذ بدايته وينظر ما إذا كان لديه قوة يقمع بها الحركة إن كان لا بد من وضع العنف موضع العدل ؛ فإن عدم القوة كان أمامه أن يلجأ إلى اللين غير مكره ولا مغلوب على أمره ... ولكنه تصرف فى الأمر على نحو ما رأينا فأفضى إلى نتائج خطيرة سوف تؤثر أثرها فى مجرى الحوادث ، فظفر الجند بمطالبهم فى عنف وعجز الحكومة عن مقاومتهم قد وضع الخديو وحكومته فى موضع الضعف وأحل عرابياً وحزبه محل التوثب والتطلع وجعلهم مناط الرجاء والأمل هذا إلى ما تركه هذا الحادث من سخيمة فى نفس الخديو يصعب بعدها كل تفاهم ويلبس فيها كل حق بالباطل ؛ ثم من حذر وريبة فى نفوس الجند يلقيان على كل حركة من حركات الحكومة شبح الذعر ويلبسان كل عمل من أعمالها ثوب الرياء

على أن ما يعنينا فيما نحن بصدده أن هذا الحادث قد أدى إلى ذيوع صيت عرابى على نحو لم يسبق لفلاح غيره فى مصر ، فسرعان ما دار اسم ذلك الفلاح على كل لسان فى القاهرة وسمع بذلك الاسم الأجانب ومن لم يكن يعرفه من المصريين ؛ ولم يقف الأمر عند القاهرة بل تعدى هذا الاسم فى القرى فأفاق على رنينه الساحر أولئك الأعيان والمشايخ الذين تعودوا منذ القدم أن يخضعوا خضوعاً مطلقاً للترك والجركس، الذين كانوا ينظرون إلى الفلاحين نظرتهم إلى دوابهم

وعجب أولئك الفلاحون أن يجرؤ رجل منهم على تحدى الخديو والرؤساء الجراكسة، فتعلقوا بهذا الرجل ولم يروه، ورغب كثير منهم فى رؤيته ، فقدموا إلى القاهرة يحملون إليه الهدايا ويعربون له عن محبتهم وإخلاصهم وإعجابهم بمبادئه التى تدور حول إنصاف الفلاحين فى الجيش ، وراح هو يخطب فيهم شاكراً مطمئناً

وليت شعرى ماذا تكون الزعامة إذا لم تكن هذه زعامة ؟

ألسنا نرى الآن فى عرابى شخصيتين : شخصية الضابط الذى يسير فى مطالب الجيش على رأس الجند ، ثم شخصية الفلاح الزعيم الذى بدأ الفلاحون به يرفعون رؤوسهم وقد خفضوها من قبل أجيالاً طويلة ؟ إنى لألمس فى تلك الصحوة فجر عصر جديد للقومية المصرية ، كان عرابى أول مؤذن أذن به ، ألمس ذلك الفجر الذى سوف يسفر صباحه عما قريب على صيحة فلاح آخر سوف يبرز من القرى كما برز عرابى ، هو سعد بن مصر العظيم مفخرة أجيالها ورأس رجالها

ولئن كان جمال قد أيقظ الثائرين فى المدن ، لقد بعث عرابى بإقدامه أهل القرى من مراقدهم ، فإن عمله هذا أوحى إليهم أن من الممكن أن يخرج من بينهم من يشمخ برأسه على أولئك الجركس الذين طالما استذلوا فى مصر الرقاب !

وبيننا كذلك من حادث قصر النيل أمر آخر لا يقل عن ذلك أهمية ، ألا وهو التفات الوطنيين إلى عرابى ، فعند هذه النقطة التقت الحركتان الوطنية والعسكرية فتولدت من التقائهما الثورة العرابية فى أصح مظاهرها وأصدقها

رأى الوطنيون ما أصاب رجال الجند من ظفر سريع ، بينما قد لحقهم هم الفشل ، واستطاع توفيق أو بالأحرى استطاع رياض أن يأخذ عليهم مسالك القول والعمل ، فسرعان ما اهتدوا إلى الطريق الذى يوصلهم إلى أغراضهم فتقربوا إلى عرابى ، فأخذ شريف يراسله ويعقد بينه وبينه أواصر المودة

وحذا حذو شريف زعماء حركة الإصلاح فى الأزهر وزعماء النواب مثل سلطان باشا ذلك الذى كان يمثل الأعيان كذلك بحكم أنه منهم ، واتضح لهؤلاء أنه يجب عليهم أن يستعينوا بهذه القوة الجديدة لإنماء رياض عن مركزه ، وبث الدستور الموعود وتحقيق الإصلاح المنشود .

وأصبح منزل عرابى مقصد الكثيرين من الأحرار كما كان موئل رجال الجيش ؛ ولم يكن موقف عرابى فى الحركة الوطنية موقف الأداة كما زين البعض المؤرخين أن يقولوا ، فلقد كان هو من جانبه من المتمسكين بمبدأ الشورى منذ نشأته ، وإنه ليؤكد فى كل ما كتب أنه قد طالب فى عريضته ، فوق ما طلب ، بإعادة مجلس شورى النواب ، ليكون فيه موئل للمظلومين من الوطنيين فى الجيش وغير الجيش .

وكان البارودى وزير الجهادية الجديد ، من دعاة الدستور ، ومن حزب شريف ، ولذلك كان حلقة الصلة بين الجند وبين الوطنيين ، وكان كثير الاتصال سراً بعرابى بواسطة على الروبى حتى لا تدعو كثرة الصلة به جهراً إلى ريبة رياض وحزب رياض ، وبهذه الوسيلة كان الجند على علم بكل ما تريده الحكومة بهم .

وهكذا أصبح عرابى ملتقى الآمال ، يحرص على الصلة به الوطنيون والجند والفلاحون ؛ ولقد بلغ من ذيوع صيته أن أصبح توفيق يغار منه حتى ما يستطيع أن يخفى تلك الغيرة .

ولو أن توفيقا عرف يومئذ كيف يتخذ سبيله وسط هاتيك الأنواء لجنب البلاد ما كانت مقبلة عليه ولتغير تاريخ مصر الذى كان لا يزال مطوياً فى حجب الغيب ، وما كان للخديو من سبيل يومئذ إلا أن ينضم إلى الحركة الوطنية فتكون البلاد كلها تحت لوائه نوابها وجيشها ، ووجوه البلاد وأعلامها ؛ وفى ذلك دون غيره سلامتها وأمنها

* * *

كانت سياسة توفيق إن كان ثمة له من سياسة عقب حادث قصر النيل أهم العوامل فى تطور الحوادث بعده على النحو الذى سوف نراه ؛ فلقد وقف موقفاً أشبه ما يكون بموقف لويس السادس عشر من مجلس طبقات الأمة حين أجاب نواب العامة فيه إلى ما طلبوا فى مسألة التصويت على القوانين وفى نيته أن يغدر بهم متى حانت الفرصة

أدرك الضباط لا ريب أنه أجابهم إلى ما طلبوا إذ لم يكن له من ذلك بد ، ولذلك أحسوا أنه لا بد متربص بهم فتربصوا هم كذلك به

وكان توفيق من ناحية أخرى يكره رياضاً ويعمل على التخلص منه ؛ لذلك وضع نفسه فى موضع عجيب حقاً ، فبينما هو يكره الضباط ويمقت حركتهم وينتوى الكر بهم إذا به يتخذ منهم أداة للكيد لوزيره بغية إقصائه عن منصبه

وهكذا تشاء الظروف أن يكون رجل كتوفيق هو الذى يحرك دفة الأمور فى مثل ذلك الزمن العاصف ؛ ولم يكن أمامه كما أسلفنا إلا أن يتخذ سبيله إلى الوطنيين فيتخذ من نواب الأمة سنداً له كما فعل أبوه فى أواخر أيامه

ولو أنه فعل ذلك لضعف شأن الحزب العسكرى إذ كان يحس الوطنيون أن لا حاجة بهم إلى معونة الضباط ، ثم كان الضباط أنفسهم يجدون فى وزارة وطنية تحقق رغائبهم ما يطمئن نفوسهم ويكبح فى الوقت نفسه جماحهم بطريقة غير مباشرة

ولكن توفيقاً لم يلجأ إلى ذلك الحل ، وما نشك أنه كان يفطن إليه ، ولكنه كان يقتضيه أن يتزل عن سلطانه إلى نواب الأمة وهو ما نشك كل الشك فى أنه كان يستطيع أن يحمل نفسه عليه ، ومن هنا أحدقت به وبعصر الأخطار ، هذا فضلاً عن دسائس الأجانب الذين أحكموا شباكهم من مدة لاقتناص الفريسة الغالية فى هذه الأيام الكدرة !

وقع حادث قصر النيل فى فبراير عام ١٨٨١ م ؛ وفى أعقاب الحادث مرت على مصر بضعة أشهر ما نظن أنه مر على البلاد فترة مثلها فى كثرة ما حيك فيها من الدسائس على قصر أمدها

سمع الضباط أن أعوان الخديو يقرون بالمال والمناصب بعض رجال الآليات ليكونوا فى الوقت الموعود إلى جانب الخديو ، ونمى إليهم أن رياضاً يفكر فى طرق إجرامية للفتك بهم ، ومن ذلك ما علموه من أنه كان يدبر مشاجرة فى أحد الشوارع يندس فيها من يقتل عرابياً أو من يحضر من زميليه .

ومما يذكره عرابى فى مذكراته أن أحد الخلمان الجركس فى منزل عبد العال بك حلمى ، وهو ابن زوج حرمه المتوفى ، قد وضع له السم فى الطعن بإيعاز غلام جركسى آخر من غلمان الخديو ، ولولا أن تنبهت الخادمة لراح عبد العال ضحية هذا الغدر الأثيم

وكذلك سمع الضباط أن الحكومة تنوى أن ترسل الآلاى السودانى بقيادة عبد العال بك إلى السودان ، بحجة أن القوة الموجودة فيه غير كافية لحفظ النظام . فأحس الضباط من ذلك أن النية متجهة إلى تشتيتهم للقضاء عليهم متفرقين

وأتهم تسعة عشر ضابطاً أحد رؤسائهم بأمور نسبوها إليه أثبت التحقيق بطلانها ، فأبعدتهم الوزارة عن مناصبهم . فبادر الخديو بإعادتهم ، الأمر الذى حنق له زعماء الجيش . إذ رأوا فيه أن الخديو إنما يعضد حركة التمرد فى صفوف صغار الضباط ويستعليهم إليه ضد رؤسائهم .

وتراءى إليهم أن الخديو يمرن حرسه فى الاسكندرية على إطلاق النار ، وأنه يشهد ذلك بنفسه ويثير الذهب على الجند متظاهراً بمكافأة المجيدين فى إصابة المرمى ؛ ولن يفسر مثل هذا العمل فى ظروف كهذه إلا بأنه استعداد من جانب الخديو لما هو مقبل عليه من قمع وبطش .

هذا بينما أرادت الوزارة أن تسخر الجند فى الآليات الأخرى فى حفر الرياح التوفيقى ، وكان عليهم أن يسلموا أسلحتهم إلى مخازن الجهادية قبل ذهابهم إلى ذلك العمل ؛ ولقد رفض عرابى الموافقة على ذلك ، وأيده البارودى وزير الجهادية

وأرسل الخديو من الاسكندرية كما يقول عرابى فى مذكراته على فهمى رئيس الحرس إلى زميليه فى القاهرة ليقول لهما إن الخديو رغب فى عزل البارودى لما رأى من دبدبته وسوء سياسته ، وإن الخديو يعطف على مطالبهم « فهم ثلاثة وهو رابعهم » وإن سموه يطلب ألا يعلم أحد بإيفاد على بك إليهم .

وعزل البارودى فعلاً ، وكان رياض قد أشير عليه أن يبعد عرابياً وعبد العال بمرتبتهما من القاهرة ، فأبى عليه ذلك

وجاء إلى البارودى ، وكان بالقاهرة ، أمر أن يسافر فوراً إلى عزبته .

ولقد كان البارودى على صلة برجال الجيش ينبئهم كما أسلفنا بكل ما تريد الحكومة بهم ، واتفق معهم أن يكون خروجه من الوزارة علامة اقتراب الخطر .

وحل محل البارودى داود يكن باشا صهر الخديو فما لبث أن لجأ إلى الصرامة فى معاملة رجال الجيش ، فحظر عليهم الاجتماع بالمنازل أو ترك معاكزهم ليلاً أو نهاراً وأنذرهم بأشد العقاب إن خالفوا أوامره ؛ ومع أن عرابيا وأنصاره قد هنأوه بمنصبه ، وطلبوا إليه أن يعمل على إجابة مطالب الجيش التى كان البارودى يسعى فى إجابتها ، فإنه اكتفى بالوعود ولم يفعل شيئاً .

وأحيط بيت عرابى وعبد العال بالجواسيس ، وجرت الشائعات بالقدر قلاً القاهرة بأن عجيب وهو أن الخديو قد استصدر فتوى سرية من شيخ الإسلام بقتل عرابى ، وكانت الظروف يومئذ تساعد على تصديق هذا النبأ الكاذب أكبر المساعدة .

وطلب رجل مجهول الإذن على عرابى فى منزله فلم يأذن له وشوهد أنه عاد إلى أحد مخافر البوليس ؛ وذهب عرابى إلى منزل زميله فعلم أنه حدث لهما مثل ما حدث له فأيقنوا أن حياتهم قد باتت فى خطر ، وكان ذلك فى ٨ سبتمبر سنة ١٨٨١ م .

لذلك كله عول الضباط على أن يخطوا خطوة حاسمة ، وكانوا على صلة دائمة فى تلك الشهور التى أعقبت حادث قصر النيل برجال الحركة الوطنية « يتبع »

الطيف